

تقديم لمخطوط الرحلة إلى بيت الله الحرام
" كمل المرام بجاه خير الأنام "
للشيخ محمد عبد الحفيظ بن صالح المهداوي التتلائي

أ. عبد الرحمن بن محمد بعثمان

— جامعة بشار —

الملخص:

عرف التواتيون الرحلة الحجازية قديما وحديثا، وألفوا في فنها نماذج رائدة، منها رحلة الشيخ: محمد عبد الحفيظ بن صالح المهداوي التتلائي. وهي مخطوطة لرحلة حجازية تعد من أواخر ما أُلّف في فن الرحلة بتوات خلال العصر الحديث، سنقوم بعرض عام حولها يعرف بها، من وصف للمخطوطة، وذكر مؤلفها، وذكر محتواها المتمثل لخط سير الرحلة من بدايتها إلى انتهائها.

الكلمات المفتاحية: رحلة، المخطوط، توات، النسخة، المرسوم.

Summary:

The Tuatites knew the Hijaz journey, ancient and modern, and composed pioneering models in its art, including the journey of Sheikh: Muhammad Abdul Hafiz bin Saleh Al-Mahdawi Al-Tanlani. A description of the manuscript, mentioning its author, and mentioning its content, which represents the itinerary of the journey from its beginning to its end.

Keywords: trip, manuscript, tawat, copy, decree.

مقدمة

تكتسي الرحلة الحجازية أهمية قصوى في الرصيد التراثي للمغاربة، من حيث إنها كانت دأب العديد من العلماء والفقهاء والأدباء والعامة الذين يشدون الرحال إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج ويسجلون مشاهداتهم عبر ذلك الطريق

الوعر والشاق والطويل،. وتشكل الرحلة الحجازية أهم خزان معرفي يتمكن بفضلها الباحث من رصد الكثير من المعلومات الهامة التي تفيده في بحثه، فعادة توفر لنا الرحلة معلومات جغرافية وأخرى تحدث عن شتى مناحي حياة ساكنة طريق الركب الثقافية الاجتماعية والاقتصادية، بل وتزخر أيضا بمعلومات فقهية وشرعية تكون عادة بشكل محاورات ومراجعات علمية بين شيوخ الركب ومستقيلهم من علماء الخطات التي يحلون بها وتتوج عادة بنصوص استجازات وإجازات عالية القيمة العلمية، تشهد على مستوى الحراك العلمي في عصر الرحلة.

عرف التواتيون الرحلة الحجازية قديما وحديثا، وألفوا في فنها نماذج رائدة، منها رحلة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التي روت حجته ومشاهداته وبعض من كراماته ورحلة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلاي: (1187-1188 هـ) التي روى فيها مشاهداته على طول طريق حجه من توات إلى الديار المقدسة مرورا بصحراء ليبيا فمصر¹، ورغم أنها لم تكن بتلك الغزارة المعرفية التي نشهدها عند العياشي والناصرى وغيرهما، إلا أنها تعتبر نموذجا هاما للرحلة الحجازية التواتية . ولقد قادني الاهتمام برحلات التواتيين الحجازية إلى البحث العميق عن تلك الرحلات في العديد من الخزائن الخلية، خاصة وأن أداء فريضة الحج كانت منى ومنة كل علماء توات وعامتها ، ولقد انتهى البحث إلى العثور على رحلة حجازية تواتية، فريدة في نوعها وحيدة في نسختها وغزيرة في مشاهداتها ومعلوماتها، هي رحلة الشيخ عبد الحفيظ بن صالح المهداوي التتلاي والتي أعكف على تحقيقها ودراستها، وسأقدم لها في هذا البحث المتواضع.

أولا: وصف نسخة المخطوط

01- حالة المخطوط :

- المخطوط رحلة حجازية تعد من أواخر ما ألف في فن الرحلة بتوات خلال العصر الحديث للشيخ محمد عبد الحفيظ بن صالح المهداوي التتلاي .
- المخطوط ناقص إلا من 15 لوحة، حالته هشية جدا نتيجة سوء الحفظ، به خروم جانبية كثيرة لاسيما في الخواف العلوية والسفلية بعضها معضل .

• كتب المخطوط بخط مغربي دقيق ورائق يتغير في بعض الأوراق بخط أقل جودة ربما لتعدد النساخ، وفيما يبدو أن المؤلف كان يملي أحيانا على شخص آخر خطه أقل جودة ولم يستعمل فيه إلا الحبر البني خالية من العناوين .

• مسطرتة: (17 x 11 سم) .

• عدد كلمات السطر الواحد: 09 كلمات في المتوسط .

02- بداية المخطوط: يبدأ المخطوط بالحمدلة وبيان أسباب الرحلة : " الحمد لله الذي تفضل علينا بالرحلة إلى حج بيته الحرام ، وقدر ذلك في سابق علمه وجعله من أفصل المرام، ومن علينا بالتوفيق له لتخرط في سلك ذلك النظام ، لنقتفي أثر أرباب القلوب من السادات الكرام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد العرب والعجم المبعوث لكافة الأنام، وعلى صحبه ليوث الكفاح ومصايح الظلام...² .

03- نهاية المخطوط: المخطوط مبتور الأخير .

ثانيا : مؤلف المخطوط

لا تقدم أي من المصادر التواتية ترجمة وافية للمؤلف، ولكن اعتمادا على ما أورده في الرحلة يمكن إيجاز بعض من سيرته .

اسمه ونسبه : هو الشيخ الحاج محمد عبد الحفيظ بن الشيخ الحاج صالح بن محمد بن الشيخ الحاج عبد القادر بن السيد عمر³ بن الحاج عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف⁴ التتلاي " أصلا " المهداوي " دارا " .

عائلته: المؤلف سليل أحد أكبر البيوتات العلمية العامرة بتوات، هي العائلة التتلائية⁵، نسبة الى جدها الشيخ أحمد بن يوسف التتلاي - مؤسس زاوية تنلان⁶ - التي سيطر أعلامها على المشهد العلمي والثقافي في المنطقة خلال القرنين: (11-12) للهجرة وشكلت منارة علمية عم نورها جميع أصقاع توات بدء من المؤسس مرورا بالشيخ أبي حفص عمر بن عبد القادر التتلاي، خريج جامع

القرويين بفاس، والذي عرفت الزاوية في عهده أزهى عصورها وذرورة عطائها، حيث تصدر التدريس وقصده طلبة العلم من أرجاء توات⁷.

ونظرا لغزارة علمه وقوة حجته ولته الجماعة التواتية خطة القضاء رغم عدم شغور منصب القاضي في تمنطيط، تخرج على يديه الكثير من العلماء الذين أثروا الساحة العلمية في توات ومن أشهرهم: الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الجنتوري المتوفى سنة 1160هـ/1747م والشيخ سيدي عمر بن المصطفى الرقادي المتوفى 1157هـ الشيخ محمد بن أب المزمري التواتي: المتوفى 1160هـ/1747م⁸ وعبد الرحمن بن عمر التتلاي المتوفى سنة: 1189هـ.

ثالث أهم شخصية علمية بارزة في هذا البيت العلمي هو أبو زيد عبد الرحمن بن عمر التتلاي المتوفى سنة: 1189هـ ، دفين مقبرة المتوفى بمصر، واسطة عقد العائلة التتلاية، وأحد أعلامها المتميزين، فالمتفحص لحياته العلمية الزاخرة يرصد تنوع مشاربه ومناهلته العلمية، فقد درس في كبريات مراكز توات العلمية وفي سجلماسة وبلاد التكرور، وتصدر بعدها للتدريس والإفتاء بتوات فقصده طلبة العلم من شتى أرجاء توات وخارجها، تميز بغزارة علمه وتأليفه حيث ألف في الفقه واللغة والفلك وفن الفهرسة وأدب الرحلة، ومثل بذلك قامة علمية أهلتها إلى الارتقاء ليكون عمدة شورى القضاء فكان رابع أربعة انتهت إليهم شورى القضاء⁹ في البلاد التواتية فكان القاضي عبد الحق بن عبد الكريم البكري يرجع إليه فيما صعب من المسائل كما أن الشيخ لم يخل بإسداء النصح وإبداء رائييه في الأحكام القضائية التي يصدرها، حيث أورد صاحب جوهر المعاني في سياق ترجمته للشيخ "..... لم يزل قاضي الجماعة الشيخ عبد الحق معتمدا على فتاويه"¹⁰.

رابع أعلام العائلة التتلاية، هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر التتلاي الذي ولد بتتلاي سنة 1151هـ وتلقى مبادئ علومه على يد والده ثم انتقل إلى سجلماسة للدراسة على يد ابن هلال السجلماسي¹¹ الذي أشاد بمستواه العلمي فأرسل إلى والده يقول:

إِنَّ الْمَلَإَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوهُ *** أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا¹²

تصدر للإفتاء والتدريس في حياة أبيه في مناطق عدة منها قرية اقبلي وكان يرسل أباه في ما استعصى عليه من النوازل ، جمعها الشيخ محمد بن عبد الملك البلالي في كتاب سماه الجامع لفتاوى التتلائي ضمنه الكثير من الفتاوى التي جاءت بشكل أسئلة يقول فيها " وسأل الابن أباه¹³ ، قال عنه المهداوي في الدررة الفاخرة " ... كان عالماً مجتهدا في البحث من حفاظ الحديث والفقه، اشتهر بالدين وحسن السيرة انتهت إليه الرياسة في التجويد وعلم الحديث"¹⁴ .

كان كثير النسخ للكتب حيث ألف الكثير من الكتب والنوازل أهمها: كتاب غاية الأمان في أجوبة أبي زيد التتلائي وضمنها العديد من النوازل والأسئلة الفقهية التي تبادلها مع والده وتخصص بمسائل العبادات والمعاملات ومسائل الميراث والزاعات حول الأراضي ومياه الفقاقير وغيرها، كما تحفظ خزائن المخطوطات النواتية عدة نوافذ منها رسالة إلهام المقتبس في ثبوت التحبب بخط المحبس رسالة ألفها تنمة لرسالة أسماها رفع الحجاب وكشف النقاب عن تلبس الملبس في ثبوت التحبب بخط المحبس وهي رسالة رد فيها على الشيخ محمد بن محمد العالم الرجلوي وهي من أهم وثائق المناظرات الفقهية بين علماء توات حيث أثبت فيها الشيخ محمد بن عبد الرحمن جواز ثبوت الوقف بخط الموقف¹⁵ ، ابتلي في آخر عمره بفقد نعمة البصر إلا أنه كان مداوما على التدريس والإفتاء توفي في 29 صفر 1233هـ .

انتشر أعلام العائلة التتلائي في أنحاء توات وتصدروا للتعليم والإفتاء في زواياها ومدارسها الدينية ، حيث استقر بعضهم المقام ببلدة مهدية وعرفوا بالمهداويين ومنهم جد المؤلف محمد بن عبد القادر المهداوي ، صاحب التقييد القيم المعروف بالدررة الفاخرة ، ومنهم من ارتحل إلى تيدكلت على غرار الشيخ أبي الأنوار بن عبد الكريم التتلائي، مؤسس الزاوية المعروفة باسمه هناك، والمتوفى سنة 1168 هـ¹⁶ . ومنهم من استقر به المقام بفاس مثل الشاذلي بن عمر بن عبد القادر التتلائي¹⁷ ، وتوفي بها سنة 1181 هـ وابن عمه الشيخ أبي زيان محمد فتحا بن عبد الرحمن التتلائي المتوفى سنة 1181 هـ

ثالثا: تاريخ تأليف المخطوط:

لم تتمكن من معرفة تاريخ تأليف المخطوط، نظرا لأنه مبثور الآخر ويخلو من إشارة مباشرة لذلك، ولكن يمكن وضع تواريخ تقريبية اعتمادا على المعلومات الواردة في المخطوط، فقد ورد في متن الرحلة، وتفيد عائلة المؤلف أن جدهم الشيخ عبد الحفيظ ألف الرحلة في حجته السابعة عام 1328هـ الموافق لـ 1910 م، وإن كان المؤلف قد أشار إلى أن الحجة هي السابعة إلا أن التأريخ يبدو غير صحيح على اعتبار أن المؤلف التقى بالعديد من الشخصيات تواريخ وفياتهم تسقط احتمال صدق التاريخ السابق، فمثلا التقى المؤلف بشيخ الزاوية السنوسية بجبل أبي قبيس في مكة المكرمة وقال أنه الشيخ " سيدي حامد " وهو الشيخ حامد بن محمد غانم خليفة الشيخ السنوسي في زاوية أبي قبيس¹⁸، وعند البحث عن ترجمة هذه الشخصية تبين أنه توفي سنة 1303هـ / 1886 م.

ومن القرائن الأخرى التي تضى مسألة ضبط تاريخ الرحلة، بعض الشخصيات التواتية الواردة في النص منهم سيدي العربي بن عبد الكريم بن عبد الكريم بن سعيد بن سيدي البكري، شيخ الركب التواتي، الذي عاش في أواخر القرن 13هـ¹⁹، بحسب ما أخبرني به الأستاذ الحاج عبد الرحمن بكر اوي.

وفي الرحلة إشارة أيضا إشارة إلى بعض شرفاء الزاوية الرقانية ومنهم الشريف مولاي عبد الله بن مولاي الحسن الرقاني الذي يرجح أحفاده أنه توفي سنة 1293هـ / 1876م، وهو الشريف الذي استقبل وفد الحجيج في الزاوية، بحسب ما جاء في الرحلة .

وفي الرحلة أيضا إشارة إلى الوجود البريطاني في مصر، حيث تشير الرحلة إلى سيطرة الإنجليز على الحياة العامة في مصر، أي أن تاريخ الرحلة واكب مرحلة الانتداب البريطاني على مصر الذي بدأ سنة 1882.

من خلال القرائن السابقة، يمكن أن نحدد تاريخا تقريبا للرحلة أي أنها كانت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.

رابعا: قيمة مخطوط الرحلة

تعتبر رحلة محمد عبد الحفيظ المهداوي التتلافي نصا تاريخيا بالغ القيمة، فهي تحوي معلومات تاريخية وجغرافية واجتماعية وسلوكية جد مفيدة، هي أيضا محاولة جادة للكتابة في فن الرحلة الحجازية التي تحيلنا على أهم المحطات التي تمر بها ركاب الحاج انطلاقا من توات وصولا إلى الديار المقدسة، مروراً بمعظم قصور توات تقريبا وصولا إلى بلاد تيدكلت وغدامس وربما طرابلس - القاهرة - السويس - جدة - فالحرمين الشريفين.

ونص الرحلة، رغم النقص الفادح في بعض أوراقه، مليء بالمعلومات الجلية حول مسار ركب الحاج التتلافي، ومظاهر الفرح والخبور التي تحتاح مستقبله عند كل محطة يتزل بها، مما يعكس جانبا هاما من مورثنا الثقافي الغني والزاهر إذ يحتفظ أهل توات إلى الآن بهذه المظاهر الاحتفالية عند استقبال ووداع الحجيج.

تحيل الرحلة أيضا، إلى بعض المعلومات الجغرافية حول مسالك القوافل الصحراوية لاسيما الرابط بين توات- وعين صالح وغدامس والذي يعد مقطعا من أحد أهم المسلك الصحراوية في العصر الحديث بعدما تراجعت قيمة طريق الملح (شنقيط - تغازة) - وطريق الذهب (تمنطيط - حواضر السودان الغربي) خاصة بعد اضطراب أحوال الأول وتراجع أهمية الثاني بجلاء اليهود إثر الحملة المغيلية، كما تعدد الرحلة أهم منابع المياه والوديان والمراعي على طول الطريق²⁰.

ترسم الرحلة صورة واضحة لبعض المظاهر الاجتماعية والسلوكية في مدن طريق الركب، حيث عادة ما كان المؤلف يحيل إلى درجات الكرم ودرجات البخل وبعض السلوكيات المجتمعية الغربية خاصة في المحطات التي كان يتوقف فيها الركب لمدة كانت تسمح للمؤلف بتسجيل ملاحظاته، ولعل أهم المحطات التي توقف عندها المؤلف، واستفاض في وصفها هي المحطة المصرية (القاهرة- الإسكندرية- السويس) وبلاد الحرمين الشريفين (جدة- مكة المكرمة- المدينة المنورة).

خامسا : محتوى المخطوط (سير الرحلة)

01- الخروج من مهدية والوصول إلى تاويرت:

انطلق الراكب من مهديّة²¹ عصر الجمعة في أوائل رجب الموافق¹² أبريل وصولاً إلى تمنطيط، التي استقبلتهم بالضيافة والكرم، وخلال المدة القصيرة زار الراكب مزارات البلدة كضريح الولي الصالح سيدي ناجم والشيخ سيدي البكري وغيرهما، واصل الراكب سيره جنوباً حيث وصل قرية أبا الرشيد بفنوغيل مقبلاً وارتحل منها بعد صلاة الظهر قاصداً بلدة أولاد المؤذن (زاجلو) وزار وليها الصالح سيدي علي بن حنيني²².

سار الراكب بعدها إلى زاوية الكناتة (زاوية كنتة) حيث استقبله شرفاء البلدة بالفروح والترحيب والبشاشة وحسن الضيافة، انطلق الراكب صباحاً قاصداً زاوية الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي وصفه المؤلف بـ " ...الشيخ الواضح والزهر الأنور الفائح قطب رحاها وشمس ضحاها " ²³.

أكمل الراكب طريقه قاصداً أنزهير فتلقاه أهلها بالفروح والسرور وأحسنوا ضيافته، وطيف بالراكب عبر المزارات منها ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عبد السلام بواسطة ابنه سيدي أحمد، ارتحل الراكب بعدها إلى تيلولين فتلقاه كبير لهم يدعى الحاج عبد الكريم²⁴.

دخل الراكب بلاد سالي من بوابة قصر اڭارزة²⁵ ونزل عند شريف فيهم يدعى سيدي محمد بن السيد الحبيب الذي جمع شرفاء البلدة وخرجوا في وداع الراكب والدعاء له، انتقل الراكب بعد ذلك إلى قرية مجاورة ساقط اسمها من المتن بسبب الخروم الكثيرة على حواف أوراق المخطوط²⁶.

ومهما يكن من أمر، فإن الراكب وصل رقان من بوابة أنزجلوف التي تلقاه أهلها بحسن الضيافة والفروح والسرور، وانحدر جنوباً نحو بلدة تيمادين²⁷ ومنها إلى قننت (الزاوية الرقانية)²⁸، وصادف يوم دخول الراكب لها موعد الزيارة السنوية للوالي الصالح مولاي عبد الله الرقاني وابنه مولاي عبد المالك²⁹، ورغم انشغال أهل الزاوية بخدمة الزوار إلا أن المؤلف أشار إلى تلك الحفاوة التي لقيها ركب الحجيج، لينطلق الراكب بعدها متجهاً شمالاً إلى تاوريرت³⁰ التي استقبله بالترحاب وحسن الضيافة³¹.

قصده الركب تيدكلت عبر صحراء الشبي إلى تيمقطن ومنها إلى أولف³²
الأشراف الذين رحبوا بالركب غاية الترحاب لاسيما السيد محمد بن عبد المالك
وابنه سيد المهدي وجمع من أعيان القرية، ثم اتجه إلى زاوية أبي الأنوار التلاني (ابن
عم المؤلف) واستقبل من قبل الشريف سيدي محمد بن مولاي هبة الله وبعد
الطواف بمزارات البلدة توجه الركب إلى أولف الشرفاء فالجديد وتقرأ فت33
وزاوية حينون في أجواء مماثلة من الترحاب والإكرام عند كل محطة34.

غادر الركب أولف متوجه إلى أقبلي التي دخلها من أركشاش والمنصور في
جو من الغبطة والسرور من أهالي البلدين الذين رافقوا الركب إلى زاوية شيخ
الركب النبوي (الشيخ أبي نعامة الكنتي)³⁵ لأجل الزيارة والتبرك ونزلوا عند
قيمها سيدي محمد بن سيد العابد³⁶.

من أقبلي، سار الركب إلى تيط ومنها إلى إيغور ومنها إلى مدينة عين
صالح37 التي خرج أهلها محتفلين بقدوم الحجيج، ولظاهر أن عين صالح كانت
مجمع ركاب الحاج، حيث روى المؤلف أن ركبته التقى بركب تمنطيط وشيخهم
سيد العربي بن سيد البكري ومعهم جماعة من أهل تيممي (الحاج عبد الرحمن بن
سيدي محمد بن إبراهيم، الحاج الحسان بن عبد الرحمن والشيخ الحاج عبد العالي بن
سيدي الحاج بلقاسم).

03- من عين صالح إلى غدامس

خرج الركب من عين صالح متتبع منابع المياه والآبار وصولا إلى غدامس،
بعد رحلة طويلة حرمانا ضياع بعض الأوراق من تتبعها، وقبل بلوغ غدامس يتزل
الركب في قرية على الطريق وصف المؤلف أهلها بالمبالغة في البخل الشديد لعزوفهم
عن الضيافة حيث قال "... ولا مررنا على أحد من بلادنا أبخل منهم .."³⁸

وصل الركب غدامس³⁹ التي كانت ليست بالقرية على أهل توات-
بحسب المؤلف- لأن بعض أهل غدامس لهم تجارة في توات وعين صالح ولأهل
توات معارف في المدينة كانوا في الاستقبال، مكث الركب في هناك خمسة أيام،
وخرج ضمن قافلة تجار قاصدا طرابلس، رصد المؤلف خلال هذه المرحلة مدى
خطورة قطاع الطرق واللصوص الذين اعتادوا مهاجمة قوافل التجار وركاب

الحاج، وأشار إلى جملة التدابير الأمنية التي أوجدتها سلطات طرابلس الغرب لحماية القوافل⁴⁰.

04- مغادرة غدامس والمسير إلى مصر

يصل الراكب إلى مصر، بعد أن حررنا ضياع بعض الأوراق من تتبع مسار الرحلة، إذ تبين بعض الأوراق مدى الصعوبات التي واجهها الراكب بعد دخوله مصر، حيث منع من دخول القاهرة، وأحاطت به العساكر حتى السويس، والراجح من خلال نص المخطوط أن المؤلف فارق الراكب ودخل القاهرة ومنها اتجه نحو السويس، بعد أن أفلت من حصار الحرس هو وزميلين له هما " الحاج جلول" و "سيدي محمد بن الحاج عبد الحق"⁴¹

أ- وصف قناة السويس: لم يخف المؤلف إعجابه بالسويس، التي وصلها بعد مشقة طويلة، ومرجع هذا الإعجاب هي المدة التي قضاها الراكب بالمدينة وهو ينتظر السفينة (البابور) الذي سوف يقلهم إلى جدة، جال المؤلف بالسويس وسجل العديد من المشاهدات، كان أهمها قناة السويس التي وصفها وصفا دقيقا، ووقف حائرا من عظم هذا المنجز الحضاري الهام، عد معجزة الملاحة البحرية العالمية، فقد أشار المؤلف بكثير من الإعجاب إلى دور القناة في اختزال المسافة بين البحرين الأحمر (القرنم) والمتوسط (المالغ)، حيث قال: أن السفن تقلع من الشام أو القسطنطينية أو المدن المغربية ولا ترسو إلا في ميناء جدة، بعدما كانت سابقا ترسو بالإسكندرية وتحمل الأحمال على ظهور الإبل مدة تتراوح بين ثلاثة أو سبعة أيام لتصل إلى شاطئ البحر الأحمر ومنها إلى بر الحجاز ويبدو من خلال الوصف أن ثقافته الجغرافية ممتازة⁴².

كما سجل المؤلف بعض المعلومات الجزيلة عن نهر النيل مبرزاً أهم خصائصه ومميزاته التي أورد منها:

- أن النيل هو الوحيد من أنهر الدنيا الذي ينساب من الجنوب إلى الشمال.
- النهر الوحيد الذي ذكر في القرآن الكريم مستشهداً بالآية الكريمة " ... "
- أن النيل من أنهر الجنة وهو نهر العسل كما جاء في رواية كعب الأحمار⁴³.

دون المؤلف في أثناء إقامته بالسويس العديد من الملاحظات، منها وصفه لبعض الحيوانات الاستوائية الموجودة هناك كالفيل الذي وصفه وصفا دقيقا مستعينا بأوصاف الحيوانات الموجودة في توات، كما وصف الزرافة التي هاله طول رقبتها وقوائمها وجمال لون جلدها وكما وصف بعض الطيور وأنواع الحيتان التي حاول وصف بعضها وأظهر العجز عن وصف بعضها الآخر⁴⁴.

ب- وصف أهل مصر: صب المؤلف جام غضبه على أهل مصر بسبب جفوتهم وقسوتهم في التعامل مع الحجيج، خاصة بعد منع الركب من دخول القاهرة والتنصيق عليهم بفرض الحراسة المشددة والضرائب الكثيرة التي تفرض على مرور الحجيج، فانتقد لباسهم الغربي حيث قال أنهم يتزيون بزى النصارى فلا تفرق بين المسلم والكافر واليهودي، فهم في نظره يعاملون النصارى بالحسنى ويتشددون في معاملة المسلمين، كما أبدى المؤلف، في موضع آخر، امتعاضه الشديد من بعض الظواهر الاجتماعية في المجتمع المصري ورماهم بالعناد وقلة الحياء ومخالطة النساء للرجال في الأسواق⁴⁵.

سجل المؤلف أيضا، مدى سيطرة الانجليز على الحياة العامة في مصر، فهم يسيطرون على شتى مناحي الحياة العامة، وأهمها قطاع النقل البحري، حيث أشار إلى أن السفينة التي أقلتهم إلى ميناء جدة كانت ملك لأحد النصارى الانجليز، وصلوا إليها عن طريق قوارب صغيرة مقابل ريالاً مجيدياً⁴⁶.

والمعروف أن الانجليز أحكموا قبضتهم على القناة بعد فرضهم الحماية مصر سنة 1882، بعد تنافس كبير مع فرنسا وحازوا على امتياز استغلالها وفق معاهدات عقدها مع حكومة الخديوي التي احتفظت بمسألة حفظ أمن القناة⁴⁷.

05- من السويس إلى الحجاز.

وصل المؤلف إلى مدينة جدة على متن السفينة الانجليزية و طاف بمزارت المدينة والتي كان أهمها ضريح أم البشر حواء (عليها السلام)، وانتقل منها إلى مكة المكرمة وأرحم إحرام الحج، دخل مكة واستقر في الزاوية السنوسية بجبل أبي قبيس، ونزل بضيافة شيخها السيد حامد، لينتقل إلى أداء مناسك الحج موردا وصفا

دقيقا لها، ميرزا دور المطوف في تعليم الحجاج الأدعية المتواتر في كل نسك ، كان المؤلف يتربص وصول الركب التواتي الذي انفصل عنه في مصر⁴⁸ .

كان المؤلف يتربص بشوق لقاء الركب التواتي الذي فارقه في مصر، حيث كان يترجل من زاوية أبي قبيس يتلمس أخباره بين ركاب الحجيج حتى بلغه خبر وصول الركب واستقراره بمنطقة ... صور المؤلف لحظة لقائه برفاقه بكثير من التأثير ورصد الكثير من المعلومات حول استقرار الحجيج في أخبية، ولكل ركب مكانه الخاص⁴⁹ .

كان يوم عرفة من أهم أيام الحج التي تحدث عنها المؤلف بإسهاب، حيث وصف وقفة الحجيج بعرفة بأعدادهم الهائلة، كما أشار إلى حادثة غريبة مفادها أن أهل ركب طرابلس قاموا بنصب أخبيتهم في المكان الذي اعتاد ركب توات الاستقرار فيه يوم عرفة، وهو بوصف المؤلف أحسن المواقف بعرفة، فقام من في الركب التواتي من أهل دلدول وتيمي وتمنيط، بضرب رجلين من طرابلس، واقتلاع أخبيتهم بالقوة، وهي التصرفات ذمها التي أنكرها الورتيلاني على حجاج القطر الجزائري، حيث كانوا كثيرا ما لا يلتزمون بأداب الحج العامة⁵⁰ .

06- المسير الى المدينة المنورة

أهمي الركب التواتي مناسك الحج بمكة المكرمة واتجه إلى المدينة المنورة، حيث سار الركب الى واد التنعيم " وادي فاطمة " وزار في طريقه العديد من المقابر وكان المؤلف يستذكر دائما بعض أحبابه الذين فارقهم في حجاته الست السابقة، فيقف على قبورهم ويقرأ عليهم ما تيسر من القرآن الكريم، فزار قبر الشيخ سيدي عبد الله التواتي، شيخ زاوية أبي قبيس السنوسية وقبر أخيه محمد عبد الرحمن، فيما لم يتمكن من التعرف على قبر والده سيدي محمد الصالح المهداوي، زار المؤلف في طريقه إلى المدينة المنورة مسارح غزوة بدر والأحزاب، حيث زار قبور شهداء بدر، ووقف في المواضع التي جلس فيها الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- في المعركتين، فوصف العدوتين القصى والدنيا والصخرة التي استند عليها الرسول- صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب⁵¹

وبفعل البتور المتكررة في النسخة الوحيدة- إلى حد ساعة كتابة المقال-
فإننا لم نخط بتتبع أطوار الرحلة في المدينة المنورة، ولا رحلة العود إلى توات، سوى
ما كان من عودة الركب من المدينة المنورة إلى العقبة ثم إلى الإسكندرية ومنها إلى
القاهرة⁵².

الخاتمة:

تعد رحلة المهداوي من أواخر ما كتب في أدب الرحلات الحجازية بتوات،
حيث إنها كتبت في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد، وتضمنت الكثير من
المعلومات الهامة حول سير ركب الحاج من توات وصولاً إلى الحرمين. غير أن
نقص بعض الأوراق والبتور الكثيرة الموجودة بالمخطوط، حرمانا من الكثير من
استجلاء العديد المعلومات الهامة حول سير ركب الحاج التواتي والحياة العامة في
الحواضر التي يمر بها الركب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن المؤلف إما
بسبب حجه المتكرر أو اعتقاده بعدم جواز وصف الحرمين الشريفين، جعله يصرح
بعدم تدقيقه في وصف مشاهداته بمكة المكرمة والمدينة المنورة.

والرحلة على صغرها واقتضاها تشكل نموذجاً للرحلة الحجازية التواتية
المتأخرة، فأسلوب كتابتها يختلف تماماً على ما عهد نظيراتها الباكرة، حيث نلمس
فيها ضعف الصنعة اللغوية، كاستعمال الألفاظ التواتية الدارجة، ولغة "أكلوبي
البراغيث"، وهي أساليب عرفها عصر الضعف في تاريخ الأدب العربي، وتبين ذلك
الانحدار الكبير الذي عرفته الحركة الأدبية واللغوية في توات أوائل القرن الثامن
عشر الميلادي.

الملحق:



وجه الورقة الأولى من المخطوط

الهوامش

- (1) بعثمان، عبد الرحمن، " قراءة في مخطوط الرحلة الحجازية لعبد الرحمن بن عمر التتلاي"، المتلقى الوطني الأول حول: الحج والعمرة في الجزائر- الأبعاد التاريخية والاجتماعية والاقتصادية- مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران ، يومي 07/08 أبريل 2012، كله.

- (2) المهداوي، محمد عبد الحفيظ، الرحلة الحجازية، مخطوط بخزانة مولاي سليمان بن علي ، أدغاخ، بدون، ورقة: 01/ و .
- (3) الشيخ سيد ي عمر بن عبد الرحمن، جد الأعلام، وأحد الأئمة المجتهدين، كان عالما بالنحو والفقه واللغة والعروض، ولي القضاء والإقراء، حامل لواء المذهب في عصره، توفي 03 ربيع الأول سنة 1152هـ، من نظمه:
- على قدر أهل التقى تأتي المواهب وتأتي على قدر الذنوب المصائب
- ينظر: (المهداوي، محمد بن عبد القادر، الدررة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية من الإدريسين والعلويين، خزانة باعبد الله ، (بدون رقم)، ورقة 04 - 05 .
- (4) أحمد بن يوسف الوانقالي ثم التتلافي المتوفى سنة 1078 هـ ، مؤسس حاضرة تنلان ، أخذ عن الشيخ عبد الكريم بن أحمد التمنطيطي (المهداوي، نفسه ، فورقة 03-04 .
- (5) جاء في بعض التقايد المخطوطة أن نسب العائلة التتلافية يتصل بالخليفة عثمان بن عفان الأموي- رضي الله عنه، وفق الشجرة التالية : أحمد بن يوسف بن محمد بن علي بن الحسين بن الحسن بن الحسن بن يوسف بن أحمد بن داود بن محمد بن سلطان بن تميم بن عمر بن ملوك بن موسى بن مدان بن أبان بن عثمان بن عفان (ﷺ) .
- ينظر: (مؤلف مجهول، تقييد لأنساب العائلة التتلافية خزانة باعبد الله، أدرار ، وأيضاً: (بلعالم، محمد باي، الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلافي، دار هومة للنشر ، الجزائر، 2004 ، ص03) .
- (6) عن تأسيس تنلان ينظر: (سيدي عمر، عبد العزيز ، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، دار هومة للنشر، الجزائر، 2004، ص 80) ، وأيضاً: التتلافي ، أحمد بن يوسف، وثيقة حبوس تنلان، خزانة تنلان، بدون ، كلها .
- (7) بعثمان، عبد الرحمن بن محمد، " الدور العلمي للزاوية التتلافية "، أشغال الملتقى الوطني الرابع حول: إسهامات أعلام توات في الحركة الثقافية والفكرية إبان العصر الحديث(1500-2000 م)، جامعة أدرار، يومي: 19/20 أبريل 2010، ص 06 .
- (8) محمد بن أب بن عثمان المزمرى التتلافي، المتوفى 1160 هـ . ينظر: (أحمد جعفري، محمد بن أب المزمرى- حياته وآثاره- دار الكتاب العربي، ط 1، 2004، كله) .
- (9) تكون مجلس شورى القضاء في توات من : الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلافي، القاضي عبد الحق بن عبد الكريم التمنطيطي، الشيخ محمد بن محمد العالم الزجلواي، الشيخ محمد الحاجب .
- (10) محمد بن عبد الكريم، جوهره المعاني فيمن ثبت لدي من علماء الثاني، خزانة مولاي سليمان بن علي ، أدغاخ، أدرار ، بدون رقم ورقة 15 .
- (11) أبو العباس أحمد بن هلال السجلماسي(1175هـ /1761م)، إضاعة الأدموس ورياضة الشمسوس من أصلاح صاحب القاموس ، النصيحة الهلالية، ديوان الهلالي، رحلة حجازية. ينظر: القادري، محمد بن الطيب ، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق : محمد حجي وأحمد

- التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط 1986، ج04، ص 143-144، وأيضا التتلاي، عبد الرحمن بن عمر، فهرسته، مذكرة ماجستير، عبد الرحمن بن محمد بعثمان، بإشراف: أ د محمد بن معمر، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بشار، ص 192 وما بعدها.
- (12) سيدي عمر، قطف الزهرات، ص104.
- (13) البلبالي، محمد عبد الكريم، كتاب الجامع لفتاوى التتلاي ، خزانة مولاي سليمان بن علي، بدون رقم ، ورقة 01-02.
- (14) المهداوي، الدرّة الفاخرة، ورقة 08.
- (15) توجد نسخة وحيدة بخزانة مولاي سليمان ، أدغاغ، أدرار.
- (16) حاج أحمد، الصديق، التاريخ الثقافي لإقليم توات، دار الحبر، الجزائر، الطبعة الثانية، 2011، ص121.
- (17) نفسه، ص124.
- (18) زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة، وهي أول الزوايا السنوسية ، تأسست عام 1827م، من طرف الشيخ محمد السنوسي مُلحَقَةً بمسجد ومدرسة للتعليم ومسكن لقبول الطلاب الزائرين والمسافرين. وكان أول شيخ لها العلامة عبدالله التواتي، ثم بعد مقتله، تعيّن السادة: مصطفى الغماري، حامد غانم المكاي، علي حامد، الشارف حامد، الصادق السنوسي حامد؛ على التواتي (الصلاي، علي محمد، الحركة السنوسية في ليبيا دار البيارق للنشر ، عمان-الاردن، الطبعة الأولى، 1999. ج 01/ص53.
- (19) بحسب ما أخبرني السيد الأستاذ الحاج عبد الرحمن بكرراوي. (عبد الرحمن بكرراوي، مقابلة شفوية ، يوم 03/02/2013، الساعة 15س 30 د.
- (20) ولد السلم ، حمّاه الله ، تاريخ موريتانيا- العناصر الأساسية- ، منشورات الزمن، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ، 2007، ص128.
- (21) مهدية: بلدة تابعة اداريا لبلدية تيمي وتبعد عن عاصمة ولاية أدرار بـ كلم، بها مدرسة دينية يشرف عليها آل سيد أعمر المهداويين ومن أبرز أعلامها الشيخ سيدي عبد العزيز سيد عمر المهداوي المتوفي سنة .
- (22) المهداوي ، رحلته، ورقة 03.
- (23) نفسه ورقة 03.
- (24) نفسه ورقة 03
- (25) الحارزة : قبيلة عربية من بني عامر الهلاليين كان أول مستقر لهم في تينركوك خلال القرنين 07 و 08 هـ . ينظر : (حوتية، محمد ، توات والأزاد خلال القرن12.13هـ/ 18/19 م دراسة تاريخية من خلال المصادر المحلية-، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ج 01 / 70) .
- (26) المهداوي، نفسه، ورقة

- (27) تيمادين: لفظ بربري معناه الأمعاء الغليظة، وفي رواية معناه عين الرجال، هي آخر قصور توات ، ومن أكثرها عمراناً وساكنة ينظر: (الطاهري، مولاي أحمد، نسيم الفحات من أخبار توات، تحقيق: مولاي عبد الله الطاهري، بدون ، 2010، ص
- (28) قُنت: لفظ بربري معناه انتهت أي نهاية توات، وتربطه بعض الرويات بالملكة البربرية تينهيان، وقد أخذت قُنت اسم زاوية الرقاني بعد أن استقر بها الشريف مولاي عبد الله الرقاني الفيلاي المتوفى 1148هـ / 1735م .
- (29) الشيخ مولاي عبد المالك بن مولاي عبد الله الرقاني المتوفى 1207هـ / 1793م ينظر: (البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولائي، فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور، تحقيق: عبد الودود ولد عبد الله و أحمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه للنشر، القاهرة ، 2010، صص 357/366).
- (30) تاويريت : كلمة بربرية تعني المرتفع، وتقع شمالي شرق رقان وكانت فيما مضى المخرج الحتمي للقوافل المتجهة إلى تيدكلت، من مزاراتها الشيخ سيدي عبد الرحمن الوديعي، يسكنها لفيف من القبائل العربية ومواليهم، منهم أولاد حريز أحوال شرفاء زاوية الرقاني لان أم الولي الصالح المؤسس مولاي عبد الله الرقاني منهم.
- (31) المهداوي ، رحلته، ورقة 03.
- (32) ورد في رحلة الأغواطي عن أولف : " وبلدة أولف محاطة بأسوار مبنية بالطين وفيها الماء الوافر والتمر ، وللسكان عدد كبير من العبيد"، ويرجع الشيخ ياي بلعالم تاريخ تأسيسها حسب جداريات مسجدها العتيق إلى سنة 164هـ / 781م ينظر: (الحاج ابن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ضمن كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990 ، ص 258، وأيضا: بلعالم، محمد ياي، الرحلة العلية، دار هومة للنشر ، الجزائر 2004) .
- (33) تفرافت: لفظ بربري يعني المقبرة وهي الآن ضاحية من ضواحي أولف.
- (34) المهداوي ، رحلته.
- (35) هو سيدي محمد بن أبي نعامة، صاحب الكرامات الظاهرات، دفن زاويته المعروفة باسمه في اقبلي، أصله من آل كنته الدين استوطنوا شمال مالي، رحل إلى بلاد توات وأسس زاويته المشهورة بتيمادين، ولما لاقى المضايقات من بعض الأعراب رحل إلى دابدر وأسس زاويته شرق زاوية بني عمه أولاد موسى الكنتي، كان أول من أحيا سنة ركب الحاج وهياً المراكب إليه وندب له الساكنة من بلاد توات والتكرور سنة 1138هـ، وهي السنة التي توفي فيها بعض أعلام توات مثل سيدي علي بن حنيني الأنصاري والشيخ البكري البكرواي المنطيطي، ومحمد لمين أخي الشيخ، وقد استمر الركب 25 سنة بعد وفاته، من تلامذته أنصار و عرب وتوارق، ومن كراماته أنه حج فوق ظهر نعامة
- (36) المهداوي ، رحلته.

- (37) يرى الشيخ محمد باي بلعالم (ت 1430هـ / 2009م) - رحمه الله- أن اسم عين صالح ينتهي إلى صالح باي (ت: 1206هـ / 1792م) باي قسنطينة في العهد العثماني، ويبدو أن هذا الرأي بجانب الصواب لأن عين صالح أسست قبل عهده بكثير . ينظر: (محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى توات، دار هومة ، الجزائر، 2004، ج 02، ص 41.
- (38) غير أن أحد معارف بعض أعضاء الـركب (من أقليي) أرسل يعص الطعام لمن في الـركب.
- (39) غدامس: بلدة كبيرة مبنية بالطوب، فيها تمور كثيرة ، سكاها يتكلمون البربرية، فيها عدد كبير من العلماء، وبها سوق عظيم، تزدهر به تجارة العبيد، وبين غدامس وتوات مسافة 24 يوما. (الأغواطي، رحلته...، ص:362-363).
- (40) المهداوي ، رحلته.
- (41) المهداوي ، رحلته.
- (42) نفسه ورقة
- (43) استقى المؤلف معلوماته من كتاب رحلة الشتاء والـصيف لكبريت المتوفي 1070هـ، ينظر: كبريت، محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي ، رحلة الشتاء والـصيف، تحقيق: محمد سعيد الطنطاوي، بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 1385هـ، ص35.
- (44) المهداوي، رحلته، ورقة
- (45) نفسه ورقة
- (46) نفسه ورقة
- (47) جلال ، السيد حسن، قناة السويس والتنافس الاستعماري ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص43.
- (48) المهداوي ، رحلته، ورقة 03.
- (49) نفسه ورقة.
- (50) يرى الـورتيلاني أن حجاج القطر الجزائري كانوا يتميزون بكثرة الشغب في الحج، كانوا يختارون الذهب للحج في أركاب أهلية منفصلة عن تلك التي تنظمها السلطة العثمانية .
- (51) المهداوي، رحلته.
- (52) نفسه.